ضوابط طلب العلم ونشره علميًا وعمليًا لبناء المجتمعات

لا شك أن الإسلام قد أعلى من قيمة العلم؛ بحيث افتتح القرآنُ الكريم رسالتَه على نبينا الكريم محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالدعوة إلى العلم في قوله تعالى: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق: ١- ٥]؛ ثم تتابع نزول الآيات الكريمة الدالة على أن هذا الدين هو دين العلم، الذي يحث أهله على طلب العلم، وينفرهم من الجهل، وذلك في قوله تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر: ٩]، وقوله تعالى: ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ [المجادلة: ١١].

وبهذا الحرص على التعلم انزاحت صفة الأمية عن أمة الإسلام؛ فأضحت أمة العلم والنور، قال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [الجمعة: ٢]؛ كما أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد حفَّزَ الأمةَ على طلب العلم في قوله: ((**طلب العلم فريضة على كل مسلم**))، وبهذه الفريضة يصبح الانتساب للعلم شرفًا يدعيه كل أحد، فالإمام علي -كرم الله وجهه- قال: "كفى بالعلم شرفًا أن يدَّعيه من لا يحسنه، ويفرح به إذا نسب إليه، وكفى بالجهل ذمًّا أن يتبرأ منه من هو فيه".

ولم يكتفِ الإسلام بأن أعلى من مكانة العلم فحسب؛ بل أعلى من مكانة حامله، فجعل للعلماء مكانة عظيمة في الإسلام لا تضاهيها مكانة فقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر: ٢٨]، فهؤلاء العلماء قد أورثهم العلم -دون غيرهم- خشيةً أثنى الله تعالى عليها، ووهبهم إخلاصًا وفهمًا وتدبرًا وهمة عالية وأمانة، وأكسبهم صبرًا وتلطفًا في الحديث وحُسنَ إصغاء، وتواضعًا وتعاونًا وأدبًا جمًّا زادهم فضلًا وبهاءً.

وعلى طالب العلم أن يتحلى بالأخلاق الرفيعة والأدب الجم، فمِنْ آداب طلب العلم وأولها هو الإخلاص في طلب العلم، والتجرد عن الهوى، وأن يكون تعلُّم العلم لنفع النفس والناس لا لطلب المباهاة وتَصَدُّر المجالس وطَلَبِ ثناء الناس، أو ليقال: فلانٌ عالم، فقد حذر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من ذلك في الحديث الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه من أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: ((**إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه...**))، وذكر ثلاثة منهم ((**ورجل تعلَّم العلم، وعلمه وقرأ القرآن، فأُتِي به فعرَّفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم، وعلمته وقرأت فيك القرآن، قال: كذبت، ولكنك تعلمت العلم ليقال: عالم، وقرأت القرآن ليقال: هو قارئ، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار**)) [رواه مسلم].

وفي العصور المتقدمة حرصوا على التربية فقدَّموها على التعليم، فقالوا: وزارة التربية والتعليم؛ نظرًا لما للتربية من أهمية أولاً، ولبيان أن التعليم هو عملية متكاملة تجمع بين التربية والتعليم في المقام الثاني، بحيث يستحيل أن تُؤَدَّى إحداهما وتُهْمَل الأخرى، قال عبد الله بن المبارك: "كانوا يطلبون الأدبَ ثم العلم"، وقال الإمام مالك رحمه الله: "كانت أمي تعممني، وتقول لي: اذهب إلى ربيعة فتعلم من أدبه قبل علمه"، إذًا فطالب العلم لا بد أن يتحلى بالأدب، يتأدب مع أساتذته، ومع مدرسته وجامعته، ويعلم أنه صاحب رسالة، ولديه غاية سامية يهدف لتحقيقها، وأن يحترم وقته لا ينفقه في غير العلم، قال الحسين بن علي رضي الله عنهما لابنه: "يا بني إذا جالستَ العلماء فكن على أن تسمع أحرص منك على أن تقول، وتعلَّم حُسْنَ الاستماع كما تتعلم حسن الصمت، ولا تقطع على أحد حديثًا وإن طال حتى يمسك".

واصطفاء الأقران الصالحين اليوم مطلب مهم لطالب العلم؛ لإعانته على تحصيل العلم، والحفاظ على جهوده من أن تشتت من دون طائل من ورائها؛ لأن الرفقة غير الأمينة ربما تجر عليه من المشاكل والمتاعب ما لا يطيق، قال ابن جماعة في تذكرة السامع حاثًّا طالب العلم على اختيار الصاحب: "احرص على اتخاذ صاحب صالح في حاله، كثير الاشتغال بالعلم، جيد الطبع، يعينك على تحصيل مقاصدك، ويساعدك على تكميل فوائدك، وينشطك على زيادة الطلب، ويخفف عنك الضجر والنصب، موثوقًا بدينه وأمانته ومكارم أخلاقه، ويكون ناصحًا لله غير لاعب ولا لاهٍ".

وعلى طالب العلم أن يعلم أن اكتسابه للعلم ليس غرضه التزين به، إنما للانتفاع به والعمل بما جاء فيه، لئلا يكون ممن قال فيهم الله تعالى: ﴿**مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا**﴾ [الجمعة: ٦]، وقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا تزول قدم ابن آدم يوم القيامة من عند ربه حتى يُسأل عن خمس، ومنها: وماذا عمل فيما عَلِم**». [رواه الترمذي].

وعلى طالب العلم المداومة والاستمرار في طلب العمل وتحصيله، ولا يحصر نفسه في منطقة معينة أو يتوقف عند حد معين أو شهادة علمية معينة، بل عليه مواصلة التعلم والتحصيل؛ لأن الأمة بحاجة ماسة إلى أبنائها من العلماء لكي ينهضوا بها، ويُسْهِموا في بنائها، ولشدة حرص السلف الصالح كانوا يَشْغَلُون أنفسهم بالعلم وتحصيله إلى آخر يوم في حياتهم، ومما قاله الإمام أحمد رحمه الله: "إنما أطلب العلم إلى أن أدخل القبر".

في ظل موجة من العنف والتطرف تشتد حاجة الأوطان إلى عقول أبنائها بجانب سواعدهم، فلقد خلقت العقول لتفكر، والسواعد لتبني، فما أجمل أن تعين العقولُ السواعدَ بالعلم النافع لكي تعمر الأرض، وتبني الأمة، وتنمي الأوطان، خضوعا لقوله تعالى: ﴿**هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا**﴾ [هود: ٦١].

ونطالع في هذا العدد من مجلة دار الإفتاء المصرية العلمية الأكاديمية ثلاثة أبحاث:

بحث بعنوان: مَا يَقَعُ بِهِ البَيَانُ "دِرَاسَةٌ أُصُولِيَّةٌ تَطْبِيقِيَّةٌ".

وبحث بعنوان: شبهات حول حديث: «بُعِثْتُ بِالسَّيْفِ» وحديث: «لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِالذَّبْحِ» والرد عليهما.

وبحث بعنوان: حكم القاضي ومدى نفاذه في الفقه الإسلامي.

ولا شك أن مثل هذه البحوث العلمية تعالج قضايا مهمة يحتاج إليها الناس في حياتهم العلمية والعملية، وتُبرِز المنهجية العلمية الإسلامية في استنباط الأحكام الشرعية لخدمة العباد والبلاد.

هذا: وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين

أ.د/ نصر فريد واصل

عضو هيئة كبار العلماء بالأزهر الشريف